التراث العربي
العدد (١٥٢)/ شتاء/ ٢٠١٩

الرؤية السيميائية عند الجاحظ

" المعاني تفضل عن الأسماء، والحاجات تجوز مقادير السمات، وتفوق ذرع العلامات... "
الجاحظ (١)

د. عدنان رسلان/ د. نينيت خضور *

يستهدف هذا البحث تأصيل الرؤية السيميائية عند الجاحظ وبيان ريادته في هذا الميدان السيميائي– قبل السيميائيين المعاصرين بأكثر من ألف عام – وتنهض هذه الرؤية عنده على خمسة من أنظمة التواصل الإنساني – التي لاتزيد ولا تنقص حسب قوله – وهي: **اللغة، والخط (الكتابة)، والإشارة، والحساب، والنُّصْبة**، مما سيرد تفصيله في سياق هذ البحث، مقارنة بما جاء به بعض السيميائيين المعاصرين؛ كفردينان دي سوسور وغيره من المشتغلين في هذا المجال.

ففي مطلع القرن العشرين تنبأ فردينان دي سوسور (١٩١٣م) بظهور "السيميولوجيا" (السيمياء)، وقدَّم رؤيته السيميائية للغة كأحد فروع هذا العلم؛ حيث قال: "**فاللغة نظام من الإشارات** System of signs التي تعبر عن الأفكار... **ويمكننا أن نتصور علما موضوعه دراسة حياة الإشارات في المجتمع**... وسأطلق عليه **علم الإشارات** Semiology."[٢]. وقد عدَّ أحد الباحثين المعاصرين هذا الاكتشاف كشفاً علمياً وفتحاً إنسانياً، يضاهي اكتشافات غاليليو في مجال العلم والكون، فكتب جوناثان كلر[٣] يقول:"ومع أنَّ دوسوسير لم يقم بالفعل بدور جاليليو القرن العشرين، فإنَّ حقه في تبوُّؤِ تلك المكانة يعتمد على نموذج التفكير والتخصص الذي أوجده

(١) الجاحظ ؛ أبو عثمان عمرو بن بحر (–٢٥٥ هـ)(٧٥٧– ٨٦٨ م). **كتاب الحيوان** ؛ تحقيق عبد السلام هارون. ط٣. (المجمع العلمي العربي الإسلامي ودار إحياء التراث العربي). بيروت ، لبنان، ١٩٦٩ م/ ١٣٨٨ هـ ج٥. ص ٢٠١
* جامعة القلمون الخاصّة.

(٢) دي سوسور؛ فردينان. **علم اللغة العام**؛ ترجمة د. يوئيل يوسف عزيز. مراجعة مالك يوسف المطلبي. بيت الموصل، جامعة الموصل، العراق. ١٩٨٨. ص٣٤.. فردينان دي سوسور (١٨٥٧–١٩١٣)؛ أشهر لغوي في العصر الحديث، ولد في جنيف. المرجع السابق، مقدمة المترجم.ص: ٣ بتصرف .**ملاحظة: ربما يجد القارئ الكريم اختلافا في تسمية بعض أسماء العلم غير العربية؛ ولاسيما سوسور ، أو سوسير، غاليليو أو جاليليو إلخ ، ويعود ذلك إلى المراجع التي اقتبس منها االبحث، وتقيد بحرفية الترجمة – كما وردت عند المترجمين.**

(٣) كلر؛ جوناثان. من ألمع المعاصرين المشتغلين في اللغة والأدب، ولاسيما علم العلامات (**السيميوطيقيا** Semiotics) انصرفت عنايته إلى جهود فردينان دي سوسور وإضافاته الحاسمة في المجالين اللغوي والسيميوطيقي.

بالفعل، أقصد علم العلامات semiology، فقد أقنعنا دو سوسير بضرورة النظر إلى الحياة الاجتماعية والثقافة الإنسانية بوصفها سلسلة من أنساق العلامات، وقدَّم النموذج والأمثولة التي تساعدنا في الدرس والتحليل. **وهذا هو في الواقع الإسهام الفعلي الذي يجعل دوسوسير بالفعل مساوياً لجاليليو**." [(١)] يشي هذا القول بمدى أهمية ظهور علم السيمياء في العصر الحديث.

وعلى أهمية ما قدَّمه سوسور ووجاهته؛ فإنَّ النشاط االسيميائي موجود، مذ وجد الإنسان العاقل في أقدم النشاطات الفكرية التي مارسها الإنسان، وقد عبر عن ذلك الناقد كمال أبو ديب بقوله: "فهو النشاط الدال لدى الإنسان، والنشاط المكتشف للدلالات القائمة في الطبيعة، أو في الوجود الإنساني؛ أي النشاط الذي يرافق ظهور الكائن الحي ويلازمه... وقِدَمُ هذا النشاط االسيميائي جعل له أصلاً يتردد منذ زمن بعيد يعزوه المؤسسون لهذا العلم في العصر الحديث إلى اليونان والعرب."[(٢)]

ويأتي هذا البحث في سياق التعرُّف إلى بعض الجهود العربية القديمة، والاطلاع على ماقُدِّم في مجال النشاط السيميائي، دون إسقاط الحاضر على الماضي، و ما جاء به سوسور أو السيميائيون المعاصرون **أسعفنا** في كشف ما قدمه الجاحظ من إنجاز كبير في هذا الميدان، حتى عدَّه غير باحث من الباحثين المعاصرين مُؤسِّسا للسيميائية[(٣)] قبل سوسور بأكثر من ألف عام.

وتنطلق فرضية البحث من أن رؤية الجاحظ السيمائية –ربما – هي التي تحكم نظرته للغة والوجود والإنسان أيضاً، ولكن هذا يحتاج إلى مزيد من الحفر المعرفي في تراث الجاحظ، وتأتي هذه الدراسة للكشف عن شيء من ذلك في ضوء المنهج السيميائي الحديث.

لقد كان أبو عثمان مصلحاً اجتماعياً وإماماً دينياً، فوجد في البيان أو الفضاء السيميائي عموماً مجالاً لخدمة هذه الأغراض مجتمعة. **فالوظيفة الأولى للبيان اجتماعية**؛ إذ يعبِّر به الإنسان عن حاجاته، ويحقق من خلاله التواصل الاجتماعي مع الآخرين زمانياً ومكانياً، فكتب الجاحظ محدداً تلك الوظيفة بقوله: "وهو البيان الذي جعله الله تعالى سبباً فيما بينهم، ومُعَبِّراً عن حقائق حاجاتهم، ومُعَرِّفاً لمواضع سد الخَلَّة ورفْع الشبهة، ومداواة الحَيرة؛ ولأن أكثر الناس عن الناس أفهم منهم عن الأشباح الماثلة، والأجسام الجامدة، والأجرام الساكنة، التي لا يُتَعرَّف ما فيها من دقائق الحكمة، وكنوز الآداب، وينابيع العلم، إلا بالعقل الثاقب اللطيف، وبالنظر التام النافذ" [(٤)] ويعتلُّ لذلك بقوله: "لأن الإنسان عن الإنسان أفهم، وطباعه بطباعه آنس، وعلى قدر ذلك يكون موقع ما يسمع منه" [(٥)]. **والوظيفة الثانية للبيان دينية**، وهاتان الوظيفتان مرتبطتان ارتباطاً وثيقاً، فكما أنَّ البيان حاجة ضرورية لحياة الإنسان في دنياه، فهو كذلك ضروري لمعرفة الخالق وصحة الاعتقاد؛ بما يضمن له الفوز بثواب الآخرة. وقد أشار الجاحظ إلى ذلك بقوله: "فَكِّر فيما أُعطِي الإنسان علمَه، وما منع منه، **فإنه أعطي**

---

(١) كلر ؛جوناثان. **فردينان دو سوسير؛ تأصيل علم اللغة الحديث وعلم العلامات**؛ ترجمة وتقديم: محمود حمدي عبد الغني، مراجعة محمود فهمي حجازي. المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر. ٢٠٠٠. ص: ١٣٥.
غاليليو غاليلي (١٥٦٤– ١٦٤٢م) فيلسوف إيطالي، وعالم في الفيزياء والرياضيات. كان له دور كبير في الثورة العلمية... وُصِف بأنه مؤسس علم الأرصاد والفلك الحديث، ومؤسس الفيزياء الحديثة...

(٢) أبو ديب؛كمال ."السيميائية أحدث العلوم الإنسانية"، **مجلة العربي**. الكويت. العدد ٣٣٤، سبتمبر ١٩٨٦. ص٦٢

(٣) انظر المرجع السابق، ص: ٦٢، و بلمليح؛ إدريس، الرؤية البيانية عند الجاحظ، ص: ١٣٣–

(٤) الجاحظ، **كتاب الحيوان**، ج١،ص٤٤و٤٥

(٥) المرجع السابق، ص٤٥.

جميع ما فيه صلاح دينه ودنياه؛ ومما فيه صلاح دينه معرفة الخالق بالدلائل والشواهد القائمة في الخلق."[١]. وهذا الذي أعطيه الإنسان "جعل له خولاً وفي يده مذللا ميسرا..."[٢]، وأضاف الجاحظ قائلاً: "**ثم تعبد الإنسان بالتفكُّر فيها والنظر في أمورها والاعتبار بما يرى، ووصل بين عقولهم وبين معرفة تلك الحكَم الشريفة وتلك الحاجات اللازمة بالنظر والتفكير وبالتنقيب والتنقير والتثبت والتوقف ووَصَلَ معارفَهم بمواقعِ حاجاتهم إليها وتشاعرهم بمواضع الحكم فيها بالبيان عنها**"[٣]. ولا يخفى ما ألح عليه الجاحظ من ألفاظ التفكير ومصطلحاته من أبسطها إلى أعقدها؛ لأنه يريد أن يؤكد دور العقل وطرائق التفكير التي تُوصِل إلى صحيح الاعتقاد ويقين الإيمان، وصلاح الأحوال. والبيان هو ذلك الوسيط الذي يحقق تلك الغايات العظيمة ديناً ودنيا. وبالبيان فهم الناس القرآن" قال الله تبارك وتعالى: "هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل **لتعلموا عدد السنين والحساب**[٤]، **فأجرى الحساب مجرى البيان بالقرآن**"[٥]. وكما كان البيان وسيلة لمعرفة القرآن، كان كان الحساب كذلك وسيلة لمعرفة أشياء تفيد الناس، وتنفعهم في معاشهم، وتبصِّر الإنسان في أمور دينه.

وبما أن ذلك كذلك، فمن البداهة القول: إنه لم يقتصر على صنف واحد فيه، إنما جعل الله ذلك البيان أصنافاً متعددة : "وجعل آلة البيان – التي بها يتعارفون معانيَهم، والترجمانَ الذي إليه يرجعون عند اختلافهم؛ في أربعة أشياء؛ وفي خَصْلة خامسة، وإن نقصت عن بلوغ هذه الأربعة في جهاتها... **وهذه الخصال هي: اللفظ، والخط، والإشارة، والعَقْد، والخَصْلة الخامسة ماأوجد [الله] من صحة الدلالة، وصدق الشهادة، ووضوح البرهان في الأجرام الجامدة والصامتة، والساكنة التي لا تتَبَيَّن ولا تحس، ولا تفهم ولا تتحرك إلا بداخلٍ يدخل عليها، أو مُمْسِكٍ خُلّي عنها بعد أن كان تقييده لها.**"[٦]

وإذا كانت جملة البيان ما تقدم ذكره، وتلك الحواس الموكلة بكل وسيلة من وسائل البيان، فما المفهوم الشامل أو الأساس الذي ينطلق منه هذا البيان؟! إنه "**الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي**"[٧]. **أي بالمفهوم السيميائي المعاصر هو العلامة**، وهي كما عرفتها أمينة رشيد بقولها:" **وهكذا يعترف الجميع بمفهوم العلامة باعتبارها شيئاً مادياً يظهر شيئاً آخر ذهنياً.**"[٨]. وهذ التعريف أكثر التعريفات المعاصرة انتشارا لدى المحدثين. ولإمبرتو إيكو، تعريف قريب مما ذكر الجاحظ آنفاً؛ إذ يرى أن **العلامة** هي: "**إشارة واضحة تمكننا من التوصُّل إلى استنتاجات بشأن أمر خفي**"[٩] .

---

(١) الجاحظ. **الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير**. ط١. طبعة المطبعة العلمية، حلب،سوريا.١٩٢٨م /١٣٤٦هـ. ص٦٠.

(٢) الجاحظ، كتاب الحيوان، ج١، ص٤٤

(٣) المرجع السابق.

(٤) سورة يونس ،الآية ٥ .

(٥) الجاحظ، كتاب الحيوان، ج١ ، ص٤٦، ٤٧.

(٦) الجاحظ، كتاب الحيوان ، ج١ ، ص ٤٥

(٧) الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص٧٥

(٨) رشيد؛ أمينة " السيميوطيقا؛ مفاهيم وأبعاد". **مجلة فصول في النقد**. القاهرة. المجلد الأول، العدد٣، إبريل (نيسان)، ١٩٨١، ص٤٧

(٩) إيكو؛ إمبرتو. **السيميائية وفلسفة اللغة**؛ ترجمة أحمد الصمعي. ط١. المنظمة العربية للترجمة. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت، لبنان. عام ٢٠٠٥. ص٤٦

وهكذا يؤسس الجاحظ لرؤية سيميائية واضحة المعالم؛ بدءا من "**العلامة**" أي الدلالة عنده، وانتهاء بالأنظمة السيميائية المركبة – على تنوعها– فقد كرر الحديث عنها غير مرة في كتبه. وتمثل الخماسيةُ – التي مرَّ ذكرها آنفاً– فروعها أو الدلالاتِ المختلفة التي تتفرع عنها، ولعل أوجز ما قاله فيها وأبينه، قوله في **البيان والتبيين**: "**وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ، وغير لفظ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ ثم الإشارة ثم العقد ثم الخط ثم الحال التي تسمى نُصبة... والنُصبة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف ولا تقصِّر عن تلك الدلالات، ولكل واحد من هذه الخمسة صورة بائنة من صورة صاحبتها، وحلية مخالفة لحلية أختها...**" [(١)]..

وبسط الجاحظ الحديث فيها أيضاً في كتاب **الحيوان** مدركاً أهم الحواس الإنسانية التي تخص كل صنف من تلك الدلالات. فكتب يقول: "**ثم قسم الأقسام، ورتب المحسوسات، وحصل الموجودات، فجعل اللفظ للسامع، وجعل الإشارة للناظر، وأشرك الناظر واللامس في معرفة العقد، إلا بما فضل الله به نصيب الناظر في ذلك على قدر نصيب اللامس. وجعل الخط دليلاً على ما غاب من حوائجه عنه، وسبباً موصولاً بينه وبين أعوانه، وجعله خازناً لما لا يأمن نسيانه، مما قد أحصاه وحفظه، وأتقنه وجمعه، وتكلف الإحاطة به، ولم يجعل للشامّ والذائق نصيباً.**"[(٢)] ويظهر من النص السابق أنه استدرك "الخط" الذي هو للناظر وللبصر، وعبر عنه بالمهمة أو الوظيفة التي يقوم بها، وكأنه قد عدَّ قضية ارتباطه، أو إدراكه بحاسة البصر أمراً مفهوماً لدى الجميع. ولأمر ما لم يجعل الذوق والشمَّ في دائرة البيان، أو في فلك الأنظمة السيميائية؛ وقد يكون السبب كونهما لا يمثلان نظاماً سيميائياً متكاملاً كسائر الأنظمة السيميائية.

ومهما يكن من أمر؛ فإن مفهوم البيان بمعناه الواسع عند الجاحظ ولج الفضاء السيميائي، وقد أشار إلى ذلك حمادي صمود بقوله:"لا يجري مصطلح البيان في مؤلفات الجاحظ على معنى واحد، فهو يدل في بعض السياقات، على وسائل التعبير الممكنة بين البشر ومختلف الكيفيات التي يؤدون بها المعنى؛ بقطع النظر عن نوع العلامة المستخدمة. **وهذا معنى عام يتسع للغة ولغيرها ويدخل في مشغل علامي تمخض اليوم، عن علم قائم الذات يطلقون عليه: علم العلامات**"[(٣)]. ولم يترك الجاحظ مجملاً من تلك الأنظمة إلا وفصَّل القول فيه.

أولاً– اللفظ:

أولى وسائل البيان عند الجاحظ، هي اللغة المسموعة والمنطوقة أي اللفظ أو "بيان اللسان"[(٤)] وبعبارة السيميائيين: اللغة؛ وهي أهم النظم السيميائية لدى القدماء والمعاصرين، بل يُعَدُّ النظام اللغوي النموذج الأرقى لسائر أنماط الأنظمة السيميائية؛ إذ تشكل اللغة أهم وسائل التعبير عن أفكار الناس ومشاعرهم، وأهم وسائل

---

(١) الجاحظ، البيان والتبيين ،ج١، ص٧٦.

(٢) الجاحظ، كتاب الحيوان، ص ٤٥– ٤٦

(٣) صمود؛ حمادي .**التفكير البلاغي عند العرب؛ أسسه وتطوره إلى القرن السادس؛ مشروع قراءة** . منشورات الجامعة التونسية .كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتونس. السلسلة السادسة، الفلسفة والآداب. العدد٢١. تونس. عام ١٩٨١. ص١٥٧

(٤) سماه"" بيان االلسان" تخصيصاً، وتمييزاً له عن البيان بمعناه السيميائي الشامل كما أراد الجاحظ (اللفظ، والخط، والإشارة، والعقد، والنصبة).

التواصل والتفاهم فيما بينهم؛ لما تمتاز به من مزايا تسمو بها على وسائل البيان الأخرى، وفي مقدمتها التعبير عن إنسانية الإنسان بالعقل الناطق، والعقل المتفهم. وقد قدم الجاحظ أدلة نقلية وعقلية لإثبات صحة ذلك؛ فبدأ بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ [١]. فاللفظ هو لسان قوم معينين، حتى تتم معادلة التواصل في الإفهام والتفهُّم التي استهدفها الجاحظ؛ وقد علَّل ما عقَّب به على الآية السابقة، بقوله: "**لأن مدار الأمر على البيان والتبيُّن، أو الإفهام والتفهُّم، وكلما كان اللسان أبين، كان أحمد، كما أنه كلما كان القلب أشد استبانة كان أحمد**"[٢]. وبذا يتحقق طرفا المعادلة في التواصل على أكمل وجه.

ولم يغفل الجاحظ – شأنه شأن السيميائين المعاصرين عن بيان أهمية اللغة بين الأنظمة السيميائية، ومنحها المكانة التي تستحقها، فكتب يقول: " **قد قلنا في الخطوط ومرافقها[...] وقلنا في العقد وَلِمَ تكلفوه؟ وفي الإشارة وَ لِمَ اجتلبوها؟ وَلِمَ شبَّهوا جميع ذلك ببيان اللسان حتى سموه بالبيان؟! وَلِمَ قالوا: القلم أحد اللسانين، والعين أنمُّ من اللسان؟! .وقلنا في الحاجة إلى المنطق وعموم نفعه وشدة الحاجة إليه، وكيف صار أعم نفعا، ولجميع هذه الأشكال أصلاً، وصار هو المشتق منه، والمحمول عليه. وكيف جعلنا الأجسام الصامتة نُطقا، والبرهان الذي في الأجرام الجامدة بيانا!.**"[٣]

ومما تقدم يظهر: أنَّ رؤية الجاحظ السيميائية ترتكز على ثلاث نقاط أساسية، تشي بريادته في هذا المضمار، وهي:

١. **التركيز على وحدة وسائل البيان**، أي **وحدة الأنظمة السيميائية**، ولا يَمَلُّ من تكرار ذلك تصريحاً أو تلويحاً، وفي غير كتاب من كتبه.

٢- حرص الجاحظ على إظهار مزايا أو سمات كل نظام من هذه الأنظمة على حدة، وإبراز الفروق فيما بينها، على الرغم من حرصه على تأكيد وحدة تلك الأنظمة السيميائية؛ إذ يقول: "وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ، وغير لفظ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها **اللفظ ثم الإشارة ثم العقد ثم الخط ثم الحال التي تسمى نُصبة... والنُصبة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف ولا تقصِّر عن تلك الدلالات، ولكل واحد من هذه الخمسة صورة بائنة من صورة صاحبتها، وحلية مخالفة لحلية أختها...**" [٤]

٣- **بيان أهمية اللغة في الحياة** فهي: أهم وسيلة تواصلية وأقدر أداة تعبيرية لدى الإنسان، بل هي حاجة إنسانية تميز الإنسان من غيره من المخلوقات في هذا الكون، ولذلك أكد الجاحظ الحاجة إلى **المنطق** وعموم نفعه، بتكرار تلك العبارة" **شدة الحاجة إليه، وكيف صار أعم نفعاً**"[٥]. إن بيان اللسان، هو البيان الحقيقي؛ كما وصفه الجاحظ آنفاً.

وتعدُّ اللغة النموذج، أو المثل الأعلى، الذي تقاس **عليه سائر أنواع الأنظمة السيميائية الأخرى؛ إفراداً وتركيباً**. فهي أو "**المنطق**" كما سماه الجاحظ وجعله " **لجميع هذه الأشكال أصلاً، وصار هو المشتق منه،**

(١) سورة إبراهيم، الآية ٤

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص ١١-١٢

(٣) كتاب الحيوان، ج٦، ص٥و٦ ، والمنطق هنا مصدر ميمي، بمعنى النُّطق.

(٤) الجاحظ، البيان والتبيين ،ج١، ص٧٦.

(٥) الجاحظ، كتاب الحيوان، ج٦ ص٥

والمحمول عليه..." [١]. وبيان اللسان هو الذي جُعِل أصلاً لسائر وسائل البيان الأخرى من خط، وإشارة، وعقد، ... "**عليه بُنِيَتْ، وبه شُبِهَت**"[٢] وما ذكره الجاحظ آنفاً، يتلاقى فيه مع سوسور؛ الذي جعل اللغة المثل الذي تحتذيه سائر الأنظمة، وعدَّها أهمها جميعاً[٣]. قد يفاجأ القارئ عندما يجد هذا التشابه الكبير بين أفكار الجاحظ، وأفكار فرديناند دي سوسور؛ حيث يقول: "**إن الإشارات الاعتباطية أفضل من غيرها في التعبير عن الهدف الأسمى لعملية التعبير بالإشارات. وهذا يفسر: لماذا تُعَدُّ اللغة – وهي أكثر نظم التعبير تعقيدا – خيرَ ممثل لنظام الإشارات. وبذلك يصبح علم اللغة النمط الأساسي لجميع فروع علم الإشارات مع أن اللغة ليست سوى نظام واحد من أنظمة الإشارات.**"[٤]. ولايخفى – على القارئ المقارِن بين القولين – مدى الاتفاق في المضمون، وإن عبَّر كلٌّ منهما بأسلوبه، وثقافة عصره.

وقد ردد بنفنست قولاً مشابها لماذكره سوسير آنفاً، حيث قال: "إن اللغة نظام سيميائي في غاية الإحكام، فهي تجعلنا نتصور ما هي الوظيفة الإشارية، **وهي وحدها تمنح النموذج المثالي لهذه الوظيفة**"[٥]. وقد أشار أحد أحد الباحثين المعاصرين إلى أسبقية الجاحظ في هذا الميدان، معلِّقاً على قول بنفنست السابق بقوله: "وإذا كانت هذه الأهمية التي تتميز بها اللغة؛ هي التي جعلت علماء السيمياء المعاصرين يولونها أكبر جهدهم وعنايتهم، ويفهمون مجالات الأنظمة الإشارية الأخرى (السيميائية)، ويدرسونها في ضوء ما يتوصل إليه علماء اللغة من قواعد وقوانين، **فإن الجاحظ قد أدرك ذلك بوعي علمي دقيق، فَخَصَّ اللغة بما لم يخصَّ به غيرها من وسائل البيان.**"[٦]

وإذا كانت اللغة أولى وسائل البيان – بتعبير الجاحظ – أو أهم أنظمة السيمياء، بلغة السيميائيين المعاصرين، وهي النموذج المحتذى، فإن هناك وسيلة رديفة لها، تنوب عنها أحياناً، وقد تكون مساعدة لها حيناً آخر؛ إنها **الإشارة.**

ثانياً– الإشـــــارة:

ميَّز الجاحظ بين نوعين من الإشارات: الإشارات الحسية؛ أي الحركات الجسدية، والإشارات العرفانية الصوفية. وقد التبس الأمر على عدد من الباحثين، ففسرها كلٌّ منهم على هواه – وقد أشار الجاحظ إلى النوع الثاني (أي الإشارات العِرفانية) – إشارة عابرة، واكتفى بالقول "ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص، ولجهلوا هذا الباب البتة، ولولا أن تفسير هذه الكلمة يدخل في صناعة الكلام لفسرتها لكم"[٧]. ولعل تلك الإشارة ليست من وسائل البيان السيميائي الحسي الوجودي؛ لذلك تجنب الخوض فيها، واهتمَّ بالإشارات الحسية؛ فكتب يقول: "وقد قال الشاعر **في دلالات الإشارة:**

---

(١) الجاحظ،كتاب الحيوان، ج٦ ص٥

(٢) بلميلح؛ إدريس، الرؤية البيانية عند الجاحظ، ص١٣٥

(٣) دي سوسور، علم اللغة العام، ص٨٧ سبق ذكرها في الصفحة السابقة.، وص٣٤ من الكتاب المذكور.

(٤) دي سوسور، فرديناند. علم اللغة العام؛ ترجمة د. يوئيل يوسف عزيز. ص٨٧ .

(٥) نقلا عن بلميلح؛ إ دريس، الرؤية البيانية عند الجاحظ، ص١٣٥.

(٦) المرجع السابق. ص١٣٥

(٧) الجاحظ، البيان والتبيين، ج١ ص٧٨

أشـــارت بطـــرف العـــين خيفـــة أهلهـــا إشـــــارة مـــــذعور، ولم تـــــتكلم

فأيقنـــت أن الطـــرف قـــد قـــال: مرحبـــاً وأهـــلاً وســـهلاً بالحبيـــب المتـــيَّم"[١]

وقد أسهب في الحديث عن هذه الإشارات، وقسمها إلى قسمين: القسم الأول ما يأتي مصاحبا للفظ، ومعززاً لقوة دلالته التعبيرية أو الشعورية. والقسم الثاني ما ينوب عن اللفظ، ويأتي بديلاً عنه: "**والإشارة واللفظ شريكان**، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ، وتغني عن الخط...! وبعد، فهل تعدو الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة، وحلية موصوفة، على اختلافها في **طبقاتها ودلالاتها؟** وفي الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح مرفق كبير، ومعونة حاضرة في أمور يسترها بعض الناس من بعض ويخفونها من الجليس وغير الجليس"[٢]. واستشهد أيضا على دلالات الإشارة، بقول الشاعر:

العين تبدي الذي في نفس صاحبها=من المحبـــة أو بغضٍ إذا كانا

والعين تنطـــــــق والأفواه صامتة=حتى ترى من ضمير القلب تبيانا

وعقب قائلا: "**هذا، ومبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصوت، فهذا أيضا باب تتقدم فيه الإشارةُ الصوتَ.**"[٣].

وذكر بعض أنواع الإشارة: "**فأما الإشارة فأقرب المفهوم منها: رفع الحواجب، وكسر الأجفان، ولي الشفه، وتحريك الأعناق، وقبض جلدة الوجه، وأبعدها أن تلوي بثوب على مقطع جبل تجاه الناظر، ثم ينقطع عملها، ويدرس أثرها، ويموت ذكرها**"[٤]. ويرى أنَّ للإشارات دلالات تختلف باختلاف **صور حركاتها**. ويقوم نظام الإشارة عنده على ثلاثة أسس رئيسة لسيمياء الإشارة؛ وهي:

١-الحركات المكونة للإشارة؛ فثمة **وحدات مكونة لِلُغة الإشارة.**

٢- للإشارة **طبقات ودلالات مختلفة** تتباين بتباين قوتها أوضعفها في التعبير، أو سرعة فهمها.

٣- **للإشارة نظام خاص بها**، أشبه بالنظام الصوتي، وهو مثله ذو نسق تركيبي.

ولقد مر بنا القول في القواعد الثلاث التي ذُكِرَت آنفاً. بيد أن القاعدة أو الأساس الأهم هو**تأسيس النظام السيميائي الإشاري الذي يشمل كل ما تقدم!** كان هذا مثار دهشة بالنسبة للقارئ المعاصر؛ لأنه يصدر عن رجل عاش في القرن الثاني أو الثالث الهجريين أي (التاسع الميلادي) - ولكن قولة الجاحظ تقطع الشك باليقين، من خلال الموازنة التي يقيمها بين النظام الصوتي والنظام الكتابي والإشارة، أو النظام الإشاري الذي يريد أن يؤسسه على غرار النظام الصوتي، إذ يقول: "**والصوت هو آلة اللفظ، والجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف، ولن تكون حركات اللسان لفظاً، ولا كلاما موزوناً ولا منثوراً، إلا بظهور الصوت. ولا تكون الحروف كلاماً إلا بالتقطيع والتأليف. وحسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان، مع الذي يكون من الإشارة من الدل والشِّكل[٥] والتقتل والتثني واستدعاء الشهوة وغير ذلك من الأمور**"[١]. ولعل هذا النص

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص٧٨

(٢) المرجع السابق، ص٧٨

(٣) المرجع نفسه، ج١، ٧٩

(٤) الجاحظ، كتاب الحيوان، ج١، ص٤٨

(٥) امرأة ذات شِكل : أي ذات غنج ودلال وغزل. أقرب الموارد ، مادة (شكل)

من أهم الأدلة التي قدمها الجاحظ على **وحدة الأنظمة السيميائية**. فضلاً عن اهتمامه ببناء النظام الإشاري بقوله: (التقطيع والتأليف)؛ أي الإفراد والتركيب، ونظام الإشارة يقوم على ذلك، وهو ذو نسق تركيبي، وقد ذَكَرَ من قبلُ تركيب الطَّرْف والحاجب، على سبيل المثال، وهنا الإشارة باليد والرأس، وحدَّد لكل مُرَكَّب إشاري وظيفة، أو دلالة مختلفة، وأشار إلى بعض تلك الوظائف التي تصدر عن الجهاز الحركي أو الجسدي للإنسان؛ على سبيل المثال لا الحصر. وختم نصه السابق بقوله: "وغير ذلك من الأمور"[٢]. وكل ذلك يؤكد أن للإشارة نظاماً خاصاً.

وقد أشارت الباحثة فاطمة محجوب إلى أن **الإشارة تُشكِّل عند الجاحظ نظاماً خاصاً ولغة خاصة**؛ إذ تقول: "ويمكن أن نستخلص تبعاً لهذا أن الجاحظ قد أدرك أن الإشارة تكون لغة شبيهة بلغة الكلام، وأن **لها نظامها الخاص الذي يشكل مواضعة اجتماعية**؛ تجعله في مستواها الثاني – الذي هو الانفصال عن الكلام– لغةً قائمةً بذاتها مستقلة عما يسمى لدى **علماء اللغة المعاصرين اللغة الطبيعية**، تستطيع أن تحل محلها في حالات كثيرة."[٣] ولهذا النظام جهازه الحركي كما للنطق جهازه الحركي: "إنه كما أن للنطق أعضاء كاللسان والأسنان والحبال الصوتية، فللحركة الجسمية أعضاء كالرأس والعينين والفم واليدين والرجلين ويطابق هذا ما جاء في كلام الجاحظ "[٤] . وتقصد الباحثة النص الذي يقول فيه الجاحظ: " فأما الإشارة فباليد وبالرأس وبالعين والحاجب والمنكب إذا تباعد الشخصان وبالثوب والسيف وقد يتهدد رافع السيف والسوط فيكون ذلك زاجراً ومانعاً ورادعاً ويكون وعيداً وتحذيراً"[٥]. في هذه الفقرة اهتم الجاحظ بناحيتين اثنتين: الأولى تحديد الجارحة التي تصدر عنها الإشارة، أو الحركة الجسمية، والثانية؛ الدلالات التي تشي بها تلك الحركات، وإن أضاف أموراً أخرى؛ كالحركة بالثوب أو السيف أو السَّوط، وما تدل عليه هذه الحركات.

وحديث الجاحظ عن الإشارة، ينم على وعي عميق وشامل بهذا النظام الإشاري السيميائي في الحياة؛ ولذلك حظي باهتمام العديد من الدارسين العرب، الذين رأوا فيه رائدا في هذا الميدان، قبل واضع علم الحركة الجسمية بيردويسل في القرن العشرين، وهو: "علم يختص بوصف أوضاع الجسم وحركاته، تلك الأوضاع والحركات التي تحدث وفق نمط معين، كما أنها تحدث نتيجة للتعلم، ويحللها جميعاً إلى خصائصها."[٦]. وقد حاولت الباحثة فاطمة محجوب القيام بموازنة بين ما وصلنا عن الجاحظ من آراء حول الإشارة، وما جاء به علم الحركة الجسمية المعاصرة فكتبت تقول: "**ولعلم الحركة الجسمية مبادئ عامة، مثله في ذلك مثل سائر العلوم، وقد لاحظنا أن ما جاء في البيان والتبيين عن الإشارة، ينطوي تحت معظم هذه المبادئ. وقد وجدنا من الناحية الإحصائية؛ أن ما أورده الجاحظ بشأن الإشارة يكون في مجموعه أربع عشرة فقرة، يمكن ربطها بأربعة عشر مبدأ من مبادئ الحركة الجسمية**"[٧].

ولا شك في أنَّ الباحثة قامت بجهد كبير طيب، ولكنها –كما تقول– اكتفت بما جاء في البيان والتبيين فقط. وهذا لا يغطي مفهوم الجاحظ الشامل عن الإشارة أو بتعبير سيميائي (**نظام الإشارة**)، ففي كتبه الأخرى

---

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص٧٩

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٧٩

(٣) محجوب؛ فاطمة .دراسات في علم اللغة . دار النهضة العربية ، القاهرة، مصر. عام ١٩٧٦. ص١٦٨

(٤) المرجع السابق، ص١٦٨. وانظر الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص٧٧.

(٥) المرجع السابق، ج١، ص٧٧

(٦) محجوب؛ فاطمة، دراسات في علم اللغة ، ص١٦٨

(٧) المرجع السابق، ص ١٠٠

ملاحظات مهمة حول الإشارة، ولا سيما كتاب الحيوان الذي **تحدث فيه عن لغة الصم والبكم**. فضلاً عن بعض التفسيرات التي تحتاج إلى إعادة نظر كتفسيره لطبقات الإشارة أو الإشارة عند خاص الخاص"[١]. وبذلك نستطيع أن نقول: لقد أسس لنظام سيميائي للغة الإشارة؛ كان للذين فقدوا نعمة النطق والسمع النصيب الأكبر من الفائدة منه! إذ لم يكن حديثه عنها حديث الناس العاديين الذين يستخدمون الإشارة في حياتهم العادية فحسب، بل كان حديث العالم الذي يستهدف أن يؤسس لبناء هذا النظام السيميائي (نظام الإشارة) أيضاً.

وخلاصة القول: إن نظام الإشارة عند الجاحظ يحتاج إلى مزيد من التقصي والبحث والدراسة – وليس هنا مجال ذلك. وما سبق ذكره عنها يعطينا صورة أولية عن الإشارة عند الجاحظ كنظام سيميائي متكامل، بما ينضوي عليه من وحداته المكونة (الحركات الجسمية أو الإشارات)، أو قواعده في الإفراد والتركيب، أو دلالاته المختلفة، والحواس التي يصدر عنها، أو بتعبير المعاصرين الجهاز الحركي الذي تصدر عنه الإشارة الجسدية.

وإذا كان الجاحظ قد جعل الإشارة بعد اللفظ، ورديفة له؛ وذلك لارتباطهما أحياناً، فإنه يردفهما بوسيلة بيان ثالثة وهي العقد أو الحساب.

ثالثا–العقد أو (الحساب)

والعقد عند الجاحظ ثالث أنواع البيان عرَّفَهُ بقوله: "أما القول في العقد، **وهو الحساب دون اللفظ والخط**"[٢]، فالدليل على فضيلته، وعظم قَدْرِ الانتفاع به، قول الله عز وجل: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[٣]، وأضاف قائلا: "**والحساب يشتمل على معانٍ كثيرة ومنافع جليلة، ولولا معرفة العباد بمعنى الحساب في الدنيا، لما فهموا عن الله عز وجل معنى الحساب في الآخرة. وفي عدم اللفظ وفساد الخط، والجهل بالعقد فساد جل النعم، وفقدان جمهور المنافع، واختلال كل ماجعله الله عز وجل لنا قواما ومصلحة ونظاما**"[٤]. وقد عقب عبد السلام هارون على ذلك بقوله: "فيظهر أن ذلك الضرب من الحساب كان شائعاً في عصره. ووجدت للبغدادي كلاما في العقد،... قال: "واعلم أن العقود، والعقد نوع من الحساب يكون بأصابع اليدين يقال له: حساب اليد، وقد ورد منه في الحديث: وعقد عقد التسعين. وقد ألفوا فيه كتباً وأراجيز"[٥]. وبالرغم من أن هذا النوع من الحساب هو طريقة من طرائق حياة الناس التي ما تزال تلاحظ في أسواق البورصات حيث ترتفع الأيدي، ولا يفهم دلالتَها إلا العاملون في هذا المجال، أو حيث تعقد الصفقات وتباركها الأيدي االمصافِحَة. وأغلب الظن: أن الجاحظ يقصد العموم لا الخصوص

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص٧٨

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٨٠.

(٣) سورة الأنعام ، الآية ٩٦

(٤) الجاحظ، البيان والتبين، ج١، ص٨٠

(٥) هارون؛ عبد السلام،(محقق كتاب الحيوان)، الحاشية (رقم٣)، كتاب الحيوان ص٣٣: " انظر الخزانة (٣: ١٤٧) . وفي حاشية رقم (١) في البيان والتبيين، ج١، ص ٧٦.

أي الحساب بصورة عامة، وهذا ما يتضح من خلال تفصيل بعض أقواله في الحديث عن العقد.

ولو كان المقصود بالعقد هذا النوع الخاص من الحساب فقط؛ لاكتفى بوضعه في باب الإشارة، ولكن الأمر ليس كذلك؛ وهذا ما وضحه بقوله: "وقد اضطربوا في الحكم بين العقد والإشارة"[١] وفسر سبب هذا الاضطراب بقوله: "**فجعل الله اللفظ للسامع وجعل الإشارة للناظر، وأشرك الناظر واللامس في معرفة العقد** إلا بما فضل الله به نصيب الناظر في ذلك على قدر نصيب اللامس"[٢] وهكذا تُتَلقى الإشارة بالعين أو النظر بينما يُتَلقى العقد بالرؤية واللمس معاً، فجهازها الإدراكي يختلف عن جهاز العقد الإدراكي، ففيه يشترك الأعمى والبصير والجاهل بحساب اللفظ والخط.

ومع ذلك فقد عدَّها – أحد الباحثين المعاصرين – طريقة إشارية، فكتب يقول: "وقد سجلت لنا بعض المصادر العربية القديمة هذه الطريقة الإشارية في الحساب، كما نجد بعض الناظمين يصف لنا هذه الإشارات الجسمية، التي تصور العمليات الحسابية بحركات أصابع اليد من هؤلاء شمس الدين مُحَمَّد بن أحمد الموصلي..."[٣] ولخص الباحث ما يجري في هذه الطريقة بقوله: "ويكون عقد الآحاد بالخنصر والبنصر والوسطى من اليد اليمنى، وعقد العشرات يكون بالسبابة والإبهام من اليد اليمنى أيضاً، وعقد المئين من ١٠٠-٩٠٠، يكون بالخنصر والبنصر والوسطى من اليد اليسرى، وعقد الألوف من١٠٠٠-٩٠٠٠، يكون بالسبابة والإبهام من اليد اليسرى أيضاً"[٤] ويظهر – من خلال هذا القول المفصَّل – أن العقد عندهم أشبه بنظام حسابي متواضع عليه آنئذٍ.

وكان الجاحظ يدرك أهميه هذا النظام أي الحساب، في تنظيم حياة البشر، وأثره في قضاء حوائجهم التي تعتمد على الحساب فكتب يقول: "**ونفع الحساب معلوم، والخَلَّة في موضع فقده معروفة** "[٥] ويستشهد على منافع هذا العلم بأدلة نقلية وعقلية، فكتب يقول: "**فالدليل على فضيلته وعظم قدر الانتفاع به قول الله عز وجل:** ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ [٦]. وقال جل وعز: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ﴾ [٧]. وبعد أن قدَّم تلك الأدلة النقلية، أشفعها بأدلة عقلية قائلاً: "**والحساب يشتمل على معانٍ كثيرة ومنافع جليلة؛ ولولا معرفة العباد بمعنى الحساب في الدنيا، لما فهموا عن الله عز وجل معنى الحساب في الآخرة**"[٨]. فقد أراد الجاحظ من حديثه في (العقد) أو الحساب عموما الإشارة إليه كوسيلة بيان، دون أن يخوض في تفصيلاتها، أو يذكر بعض أنواعها. ومما يعزز هذا الرأي

---

(١) الجاحظ، كتاب الحيوان ج١ص ٤٩

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٤٥.

(٣) حسام الدين؛ كريم زكي. **الإشارات الجسمية**. ط١. مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، مصر. ١٩٨٥. ص٨١

(٤) المرجع السابق، ص ٨١. وينقل ذلك عن الآلوسي بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ٣/٣٨١،٣٨٢ ،ط بيروت، ١٩٦٩، ودائرة المعارف الإسلامية ١٤/٢٦٨ ، ٢٦٩ الترجمة العربية،ط الشعب ١٩٩١م.

(٥) الجاحظ، كتاب الحيوان، ج١،ص٤٦.

(٦) سورة الأنعام، الآية ٩٦ .

(٧) سورة يونس. الآية . ٥ .

(٨) الجاحظ، البيان والتبين، ج١، ص٨٠

النتيجةُ العامةُ التي توصل إليها بقوله: "**وفي عدم اللفظ، وفساد الخط، والجهل بالعقد، فساد جلِّ النعم، وَفقدان جمهور المنافع، واختلال كل ما جعله الله عز وجل لنا قواما ومصلحة ونظاماً...**"[١] . و بتلك الأركان الثلاثة– (**قواما ومصلحة ونظاماً**)– لَخَّصَ الجاحظ أهمية تلك الأنظمة السيميائية الإنسانية الثلاث – من نطق، وخط، وعقد – في تميز الإنسان من المخلوقات، وأهميتها في حياة بني البشر، وتواصلهم الإنساني، لبناء مجتمع إنساني حضاري؛ يحقق لهم الرفاه في الدنيا والثواب في الآخرة.

رابعاً– الخط (الكتابة):

على الرغم من أهمية الخط أو الكتابة بأنواعها عنده؛ فقد عدَّها رابع الخمسة من أنواع البيان[٢]، وجعل الحديث عنه بعد الإشارة والعقد حيث يقول: "قد قلنا في الدلالة بالإشارة. فأما الخط ، فمما ذكر الله عز وجل في كتابه من فضيلة الخط والإنعام بمنافع الكتاب، قوله لنبيه عليه السلام ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَم * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَم * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم﴾ [٣]. ولذلك قالوا: القلم أحد اللسانين،... وقالوا: القلم أبقى أثرا، واللسان أكثر هَذَرَا."[٤]

ولا يقتصر الخط عنده على الكتابة وحدها، بل يشمل كل الوسائل الخطية التي تُدْرَكُ وتُتَلَقَّى بحاسة البصر، وهذا يفسر دقة اختياره للمصطلح، وبعبارة أخرى؛ فالخط عنده هو كل علامة تقوم على شكل مصور يدرك بالعين أو حاسة البصر على سطح مكان ما، يقول أبو عثمان: "**وليس بين الرقوم والخطوط فرق ... وليس بين الرسوم التي تكون على الحافر كله والخف كله والظلف كله، وبين الرقوم فرق، ولا بين العقود والرقوم فرق، ولا بين الخطوط والرقوم كلها فرق، وكلها خطوط، وكلها كتاب أو في معنى الخط والكتاب**، ..." [٥]

إذاً، هذا تعريفه الشامل لنظام الكتابة، فهي (أي الكتابة) لا تقتصر على ما يكتب بالقلم، وإن كان أساساً ومهماً عنده، وإنما كل ما أشار إليه آنفاً من رقوم وكتابة وزخرفة ونقوش وتخطيط، أورسوم أو وسوم؛ فهذه كلها – وإن اختلفت الوسائل في صنعها، والمجالات المستخدمة فيها – فإنها تتفق في أنها تدرك بالعين – كما سبق القول – وتلبي حاجات الناس حاضرا ومستقبلا، دنيا وآخرة.

ولمزيد من الإيضاح لمعنى (الكتابة والخط) يحاول أبو عثمان أن يقارن بين لغة الكتابة، واللغة المنطوقة المسموعة التي تقوم على الصوت، فيضيف إلى قوله السابق: "... **ولا بين الحروف المجموعة والمصوَّرة من الصوت المقطَّع في الهواء، ومن الحروف المجموعة المصوَّرة من السواد في القرطاس فرق. واللسان يصنع في**

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٨٠

(٢) وقد ورد لديه ترتيب آخر في كتاب الحيوان،ج١، ص٤٥. جاء فيه" وهذه الخصال هي: اللفظ، والخط، والإشارة، والعَقْد، والخَصْلة الخامسة ما أوجَدَ [الله] من صحة الدلالة، وصدق الشهادة، ووضوح البرهان في الأجرام الجامدة والصامتة، والساكنة التي لا تَتَبَيَّن ولا تحس، ولا تفهم ولا تتحرك إلا بداخلٍ يدخل عليها، أو مُمْسِكٍ خلّي عنها بعد أن كان تقييده لها".

(٣) سورة العلق، الآيات: ٣،٤،٥ .

(٤) البيان والتبين، ج١، ص٧٩

(٥) الجاحظ، كتاب الحيوان، ج١، ص٧٠. والكتاب هنا بمعنى الكتابة.

جوبة[١] **الفم (وهوائه الذي في جوف الفم) وفي خارجه، وفي لهاته، وباطن أسنانه مثل ما يصنع القلم في المداد والليقة**[٢]**. والهواء والقرطاس، وكلها صورٌ وعلاماتٌ وخَلْقٌ مواثل ودلالات، فيعرف منها ما كان في تلك الصورة لكثرة ترددها على الأسماع، ويعرف منها ما كان مصوراً من تلك الألوان لطول تكرارها على الأبصار، كما استدلوا بالضحك على السرور، وبالبكاء على الألم. وعلى مثل ذلك عرفوا معاني الصوت وضروب صور الإشارات وصور جميع الهيئات..."**[٣] وفي هذا النص يُعْنى الجاحظ بثلاث قضايا أساسية:

١. **النظرة البنيوية العميقة** لكل من **لغة الصوت (اللسان)، ولغة الكتابة، وصور الإشارات، وصور جميع الهيئات،** التي تتجاوز مفردات كل لغة؛ ليصل إلى أسس النظام المشترك الذي تقوم عليه كل لغة من هذه اللغات (بالمعنى السيميائي المعاصر)، ولذلك ذابت الفروق عنده بين "**الحروف المجموعة والمصورة من الصوت المقطع في الهواء وبين الحروف المجموعة المصورة من السواد في القرطاس، وضروب صور الإشارات، وصورجميع الهيئات...** "[٤]. فهو يشير إلى اللسان، والإشارة والخط والتصوير بأنواعه..." وهذا يذكّر بتعريف سوسور للغة سيميائيا، حيث يقول: "**فاللغة نظام من الإشارات** System of signs التي تعبر عن الأفكار، **ويمكن تشبيه هذا النظام بنظام الكتابة، أو الألفباء المستخدمة عند فاقدي السمع والنطق،** أو الطقوس الرمزية أو الصيغ المهذبة، أو العلامات العسكرية، أو **غيرها من الأنظمة، ولكنه أهمها جميعاً.**"[٥] ولعل في ذلك تأكيداً لرؤية الجاحظ السيميائية الكاشفة لأبعاد هذه الأنظمة السيميائية.

٢. **تآلف وحدات كل نظام من الأنظمة السيميائية؛** ليكون ذا دلالات ومعانٍ؛ سواء ما كان منها يدرك بالرؤية والبصر،أم ماكان يدرك بالسماع؟! أي الأصوات في اللغة المنطوقة، والحروف في الكتابة والخط، والألوان في الرسوم والزخارف والصور، أو غير ذلك.

٣. **تأكيد وحدة الأنظمة السيميائية،** كلما أتيح له ذلك – فختم قوله السابق بكلام جمع فيه بين "**معاني الصوت وضروب صور الإشارات وصور جميع الهيئات**"[٦] لأنه أدرك مدى تشابه هذه الأنظمة السيميائية في بنائها ووظائفها وغاياتها.

إن وحدة الأنظمة السيميائية – التي تكمن في أسس النظام الذي تقوم عليه – لا تلغي الفروق الخاصة للطبيعة الذاتية لوحدات كلٍّ منها، ولا الحاسة التي تُدرَك بها، ولا الوظائف الخاصة بها التي تؤديها – حسب خصوصيتها – فالوظائف التي تؤديها لغة الكتابة تختلف عن الوظائف التي تؤديها اللغة المسموعة المنطوقة، وإن كانت كل منهما وسيلة من وسائل البيان، فاللغة الصوتية محددة بحدود زمان ومكان معينين، بينما تتجاوز لغة الكتابة حدود الزمان ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، كما تتجاوز آفاق المكان، ولذلك قال الجاحظ: "**اللسان مقصور على القريب الحاضر، والقلم مطلق في الشاهد والغائب، وهو للغابر الحائن، مثله للقائم الراهن. والكتاب يُقْرَأ بكل مكان، ويُدْرَس في كل زمان؛ واللسان لا يَعدو سامعَه ولا يتجاوزه إلى غيره**"[٧].

---

(١) جوبة الفم، حفرة الفم.

(٢) الليقة: ليقة الدواة، ولاق بالشيء بمعنى لزق، ولاقت الدواة تليق: لصقت. اللسان : (ل ي ق)

(٣) الجاحظ، كتاب الحيوان، ج١، ص٧٠

(٤) المرجع السابق .ص ٧٠

(٥) سوسور ، علم اللغة العام، ص٣٤

(٦) الجاحظ، ،الحيوان، ج١، ص٧٠

(٧) الجاحظ، البيان والتبين، ج١، ص٨٠.

إذاً، كان الجاحظ على وعي عميق بأسس **الأنظمة السيميائية**، كما كان على وعي عميق بالفروق التي تميز كلَّ نظام من تلك الأنظمة. وكان ذلك سبباً مهما؛ في أن يَعُدَّ بعض الباحثين المعاصرين الجاحظ مؤسسا للسيميائية عموما[١]، ولسيميائية الخط أو الكتابة خصوصاً؛ حيث أشار بلمليح إلى ذلك بقوله: "**يجب التذكير في هذا المجال، بأن الجاحظ يُعَدُّ بحق مؤسس نظرية سيميائية، واضحة المعالم، اهتمت بالخط فأدركت بعض أسس نظامه ومبادئه، وافتقرت إلى أسس ومبادئ أخرى وتحدثت عن بعض قوانينه، لكنها لم تصل بهذه القوانين إلى حدها العلمي المتعلق بالكتابة عند السيميائيين المعاصرين**"[٢].

وأغلب الظن: أنّ الجاحظ لم يكن يقوم بوضع نظرية مفصَّلة للخط، أو لغيره من وسائل البيان، أو الأنظمة السيميائية بقدر ما كان يرسي أسساً وقوانين سيميائية عامة، تتلاقى وما وضعه السيميائيون المعاصرون؛ باعتراف بلمليح نفسه، إذ يقول: "يقول بنفنست: إن كل نظام سيميائي يعتمد على إشارات يستوجب بالضرورة أن يتضمن: ١- مجموعة محددةم ن العلامات (الإشارات). ٢- قواعد تنظيم تتحكم في أشكال هذه الإشارات (العلامات). ٣- استقلال هذه الإشارات عن طبيعة الخطابات التي يسمح النظام بإنتاجها، وعن عددها، فإذا **نحن أبعدنا النصبة أو الحال عن وسائل البيان** الأخرى التي حددها الجاحظ، وجدنا أنها كلها تدخل في إطار هذه القواعد التي قررها بنفنست؛ لأن أهم ما يميز اتجاه سوسير وممثليهم السيميائيين المعاصرين الذين أسمينا منحاهم بسيمياء التواصل، على خلاف أصحاب سيمياء العلامات، وجُهْدُ الجاحظ السيميائي يمثل - تبعا لوظيفة التواصل لوسائل البيان عنده - تجليا واضحاً للقواعد الثلاث التي حددها بنفنست لكل نظام سيميائي"[٣].

ومع ذلك نستأنس بحديث الجاحظ عن مخططه الذي رسمه للحديث عن الخطوط في كتاب الحيوان، ونصه: "**قد قلنا في الخطوط ومَرَافقها، وفي عموم منافعها، وكيف كانت الحاجة إلى استخراجها، وكيف اختلفت صُوَرُها على قدر اختلاف طبائع أهلها، وكيف كانت ضرورتهم إلى وضعها، وكيف كانت تكون الخَلَّة عند فقدها.**" [٤] ولا يخفى على القارئ أن الجاحظ يتحدث عن نظام الكتابة كنظام سيميائي عام.

خامسا- النُّصبة[٥]:

عرَّف الجاحظ االنُّصبة بقوله: "**النُّصبة: هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف، ولا تقصِّر عن تلك الدلالات...وأما النُّصبة فهي الحال الناطقة بغير اللفظ، والمشيرة بغير اليد. وذلك ظاهر في خلق السموات والأرض، وفي كل صامت، وناطق، وجامد، ونام، ومقيم، وظاعن، وزائد، وناقص، فالدلالة التي في الموات الجامد، كالدلالة التي في الحيوان الناطق، فالصامت ناطق من جهة الدلالة، والعجماء معربة من جهة البرهان؛ ولذلك قال الأول: سل الأرض فقُل: من شق أنهارك وغرس أشجارك، وجنى ثمارك، فإن لم تجبك حوارا، أجابتك اعتبارا.** "[٦].

ويعتل لذلك بقوله: "**ومتى دل الشيء على معنى، فقد أخبر عنه، وإن كان صامتاً، وأشار إليه، وإن كان ساكناً، وهذا القول شائع في جميع اللغات، ومتفق عليه مع إفراط الاختلافات.**"[٧]

---

(١) انظر أبوديب، كمال ."السيميائية أحدث العلوم الإنسانية"، **مجلة العربي**، ص٦٢.

(٢) بلمليح؛ إدريس، الرؤية البيانية عند الجاحظ، ص١٣٣.

(٣) بلمليح؛ إدريس، المرجع السابق، ص١٣٦.

(٤) الجاحظ، كتاب الحيوان، ج٦، ص٥

(٥) هذا نُصْبُ عيني :أي القائم في نظري، فُعْل بمعنى مفعول، كالطُّعْم. **النُصُب** كل ما جُعِل عَلَماً لِنصْبة: النوع، **والنُصْبة بالضم: السارية المنصوبة لمعرفة علامة الطريق**. معجم أقرب الموارد مادة نصب..

(٦) الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص٨١ ،٨٢

(٧) المرجع السابق.

بيد أنَّ الشيء اللافت في تعميمه السابق قوله: "**وهذا القول شائع في جميع اللغات، ومتفق عليه مع إفراط الاختلافات**"[١]. وهذا التعريف الذي قدمه الجاحظ للدلالة بهذه الثقة والتعميم لجميع اللغات، يذكرنا بالتعريف الذي صاغته أمينة رشيد للعلامة الذي يكاد يتطابق مع قوله: "**وهكذا يعترف الجميع بمفهوم العلامة، باعتبارها شيئا ماديا يظهر شيئا آخر ذهنيا. ولكننا نرى الاتجاهات تختلف، بعد هذا الاعتراف فيما يختص بالتعريف الدقيق للعلامة**... "[٢].**فما** تفسير الباحثين المعاصرين لهذا التطابق في الأقوال بين المعاصرين والجاحظ في تعريف العلامة؟! هذا التعريف الذي يقدِّم رؤية سيميائية إنسانية واضحة لا ضفاف لها، لاتقف عند حدود زمان معين، أو مكان معين، أو لغة ما.

كانت **النُّصبة** عند الجاحظ موضع أخذ ورد لدى بعض الباحثين المعاصرين، فبعضهم عدها أداة تواصل، ولكن ليس بين الأفراد بل بين الناس والله عز وجل، ولخَّص هذه الفكرة إدريس بلمليح بقوله: "ومعنى هذا أن النُّصبة أداة تواصل تحمل رسالة صامتة أو خطاباً بالحال... ومصدرُ الرسالة أو باثُّها هو الله خالق العالم، ومتلقيها هو الإنسان الذي يتأمل الكون، فيستخلص منه وجوه الحكمة الإلهية."[٣] ويضيف بلمليح قائلاً: "فهل يمكن اعتبار الدلالة بالنُّصبة حسب مفهومها الجاحظي، إشارة تواصل؟ نعم إنه يصح ذلك، إلا أن هذا التواصل لا يتم بين أفراد المجتمع، وبالتالي، فإنه **لا تصح دراسة الإشارة بالنصبة في حضن الحياة الاجتماعية** ،كما اشترط علماء اللغة والسيمياء، ولكنها – أعني النصبة – **أداة تواصل بين الإنسان والقوة الغيبية التي تعتبر سر العالم، وحقيقته الخفية**، إنما **إشارة للدلالة على الله، لا للدلالة على أمر من أمور المجتمع**، كما هو الشأن فيما يتعلق بإشارة بارت أو بريتو التي تحيل إلى حياة أفراد البشر."[٤]

بيد أنَّ المتتبع لحديث النصبة عند الجاحظ يرى خلاف ذلك تماما؛ إذ إنه لا يقتصر على هذا الجانب فحسب – كما يرى الباحث بلمليح آنفا – بل نجد في حديثه النظري، وفي شواهده التي ذكرها عن النصبة، أدلة على أنَّ الجانب التواصلي الاجتماعي، أمر يعني الجاحظ وبدرجة كبيرة ؛ إذ لا يغيب عن باله أبداً، أمر أكثر خصوصية، وهو الجانب الفني أو النقدي أيضاً، فبين أيديه كثير من قصائد الشعراء الذين تزخر بهم أرض العراق والشام والحجاز، وفي العراق كنوز تاريخية وآثار خالدة تحت مرمى بصره، وكلها إن "لم تجبك حواراً، أجابتك اعتباراً" [٥].

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) رشيد؛ أمينة. "**السيميوطيقا؛ مفاهيم وأبعاد**". **مجلة فصول** في النقد. المجلد الأول، العدد ٣، ص٤٧ .

(٣) بلمليح ،الرؤية البيانية عند الجاحظ، ص١٢١

(٤) بلمليح، المرجع السابق، ، ص١٢١. وقد شاركه في وجهة النظر السابقة، وحذا حذوه رجاء بن سلامة في مقال له بعنوان"**في النصبة والبيان ومحنة المعنى**"؛ إذ يقول: "ونحن إذا عدنا إلى كتب علم العلامات، وجدنا النصبة أشبه بشيء مما يطلق عليه أمارة أو مصطلح قرينة، وهي الأدلة التي يصدرها الباث من غير قصد، فهي تنبعث من مصدر طبيعي، أو أشبه بشيء بما يسميه غريماس الأدلة الطبيعية، باعتبار أن الإنسان يملأ الطبيعة بالمعنى، ويخضعها لقوالبه الذهنية والثقافية، ولكن النصبة ليست مفهوماً وصفياً عاماً يمكن عزله عن سياقه واعتباره مرادفاً للمفاهيم الحديثة، **فأطراف مسار التواصل عبر النصبة** من نوع خاص، فالدال هو الكون بأسره باعتباره مجسد الحكمة، الله المدلول، والمدلول: هو معنى الله والمرجع: هو الله، وهو مرجع من نوع خاص، أما المتقبل فهو الإنسان بصفته مُسْتَدِلّاً، أي طالباً للدليل، أو واجداً له. ثم إن النصبة ليست علامة بقدر ما هي شيء" مجلة فصول في النقد، القاهرة مج،١٥، شتاء ١٩٩٧، ص ص (٢٩٩.٣٠٨). و قد أورد حديثاً مفصلاً عن ذلك في ص ٣٠٠.

(٥) الجاحظ، البيان والتبيين،ج١، ص٨١ ،٨٢

ففي الشعر يذكر الجاحظ قولا لنُصَيب في سليمان بن عبد الملك؛ جاء فيه: "قال نُصيب في هذا المعنى، يمدح سليمان بن عبد الملك:

أقـــول لركـــب صـــادرين لقيـــتهم قفـــا ذات أوشـــال ومـــولاك قـــارب

قفـــوا خـــبرونا عـــن ســـليمان إنـــني لمعروفـــه مـــن أهـــل ودان طالـــب

فعـــاجوا فـــأثنوا بالـــذي أنـــت أهلـــه ولوســـكتوا **أثنـــت عليـــك الحقائـــب**

وهذا كثير جداً "[1]. إذاً، لم يكن الجاحظ يقتصر على الجانب الديني فحسب، بل يشمل حديثُه الجانب الفني والجانب الدنيوي الاجتماعي أيضاً. ولعله أرسى بذلك أصلاً سيميائيا، أو قاعدة من قواعد قراءة ما يسمى بالإشارات التي يوحي بها الشعر، وهو بارع في هذا المضمار!

وغاص الناقد عبد السلام المسدي إلى أعماق نظرة الجاحظ في النُّصبة، ووضعها في سياقها الحضاري الصحيح، إذ يقول: "**ومن أعجب ما يستوقفنا اليوم، هو هذه الإفاضة الغزيرة** التي ينتقل فيها رواد الفكر العربي بيسر ورشاقة مذهلة من فكرة **العلامة** كمفهوم عيني بسيط إلى **الدلالة** المستنبطة من العلامة، كمنظومة فكرية، وكنسيج اعتباري، وكمنهج استقرائي، بل كطراز معرفي كسائر الطرز فالناظر في هذا الذي أسموه مرة **دلالة النصبة**، ومرة **دلالة الاعتبار**، ومرة ثالثة **دلالة الأشياء بذواتها**، لم يكن مجرد تنبيه على العلامة كيف تدل؟ وإنما كان تصوراً فكرياً كاملاً يقوم على **دفع الإنسان إلى إمعان النظر، وتحريضه على تدبر الوجود انطلاقاً من ملاحظة وقائعه الظاهرة** "[2]. ومما يؤكد وجهة النظر السابقة ما جاء به الجاحظ نفسه في غير موضع من كتبه[3]، كقوله: "**فموضوع الجسم ونصبته دليل على ما فيه، وداعية إليه، ومنبهة عليه؛ من هذا الوجه قد شارك في البيان الحيّ الناطق**"[4].

ومن غرائب الأمور أن يجد الباحث تشابها بين تعريف الجاحظ للنصبة وبين الأيقون أو الأيقونة عند بيرس؛ حيث يقول: "**إن الأيقونة علامة تحيل إلى الشيء الذي تشير إليه بفضل صفات تمتلكها، خاصة بها وحدها،** فقد يكون أي شيء أيقونة لأي شيء آخر؛ سواء كان هذا الشيء صفة، أو كائناً فرداً، أو قانوناً بمجرد أن تشبه الأيقونة هذا الشيء، وتستخدم علامة له."[5]. وتعلّق سيزا قاسم على تعريف بيرس للأيقونة بقولها: "وتضم

---

(١) المرجع السابق، ج١،ص٨٣،٨٢.

(٢) المسدي؛ عبد السلام.ما وراء اللغة بحث في الخلفيات المعرفية. مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع، تونس. ١٩٩٩. ص٧٥.

(٣) الجاحظ، كتاب الحيوان ج١، ٣٣ .وجاء قوله: "وَ وجدنا كون العالم بما فيه حكمة، ووجدنا الحكمة على ضربين: شيء جُعِل حكمة، وهو لا يعقل الحكمة ولا عاقبة الحكمة، وشيء جُعِل حكمة، وهو يعقل الحكمة وعاقبة الحكمة. فاستوى بذلك الشيء العاقل وغير العاقل في جهة الدلالة على أنه حكمة، واختلفا من جهة أن أحدهما دليل لا يستدل، والآخر دليل يستدل، **فكل مستدل دليل، وليس كل دليل مستدّلا**، فشارك كل حيوان سوى الإنسان، جميع الجماد في الدلالة، وفي عدم الاستدلال، واجتمع للإنسان أن كان دليلاً مستدلاً، ثم جُعِلَ للمستدل سببٌ يدل به على وجوه استدلاله، ووجوه ما نتج له الاستدلال، وسموا ذلك بياناً. "

(٤) الجاحظ، كتاب الحيوان، ج١،ص٣٥.

(٥) بيرس، تشارلز ساندرس؛ ترجمة سسيزا قاسم ، في مقالها" السيميوطيقا: حول بعض المفاهيم والأبعاد"، في كتاب أنظمة أنظمة العلامات في اللغة والأدب واالثقافة ، ص٣١

الأمثلة التي يضربها بيرس عن الأيقونة: الصورة الفوتوغرافية، والصورة التمثيلية، الشخصية، وتكون الصورة أيقونة تحل محل المشار إليه وتشبهه إلى الحد الذي يجعلنا نفقد الإحساس أن الذي نشاهده ليس الشيء نفسه، ولكنه مجرد علامة تحل محله. ويميز بيرس بين ثلاثة أنواع من الأيقونات : الصورة والرسم البياني والاستعارة، وكلها تنطوي على جوانب تشابه بينها وبين المشار إليه."[١] وقد يحتاج هذا الحكم إلى إنعام النظر ودراسة مستفيضة للمقارنة بين العلامتين الأيقون أو الأيقونة عند بيرس؛ والنصبة عند الجاحظ! وربما يحتاج ذلك إلى العودة إلى الفكر الأرسطي أيضاً، لأنه المصدر المشترك لكليهما.

ولا نزعم تساوي الرؤيتين، وإن كانت النُّصْبة تشير إلى نوع من أنواع الأيقونات، ولكنها – في أغلب الظن – أشمل من ذلك، وهذا الذي جعل "النُّصبة" عنده لا تُقصِّر عن تلك الدلالات التي أشار إليها آنفاً: "**من لفظ وخط وإشارة وعقد**"[٢]. فهذه الدلالة أو العلامة لها صورتها، شأنها شأن هذه الدلالات "**والنصبة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف، ولا تقصِّر عن تلك الدلالات**" [٣]. فهي أيضاً نظام من الأنظمة السيميائية الذي يقوم على أسس ينبغي دراستها وفهم دلالاتها، والاهتمامُ بها لا يقِلُّ عن الاهتمام بتلك الأنظمة السيميائية الأخرى؛ ولذلك يعطيها هذه الأهمية التي تستحقها فعلاً في عالم البيان. وحسبه أنه قدم من الأفكار النظرية والشواهد عليها، ما يكفي للتوسع في دراستها، حتى عدَّ رجاء بن سلامة كتابه "**الحيوان**" كتاباً في النصبة، فكتب يقول: "فاللفظ وسيلة بيان العالم الأصغر، والنصبة وسيلة بيان العالم الأكبر، **فـ (الحيوان) في رأينا كتاب في النصبة كما أن البيان والتبين كتاب في الأنظمة العلامية الأخرى خاصة اللفظ والإشارة...**" [٤] وأظن أنَّ الأمر يحتاج إلى المزيد من الحفر المعرفي، حتى يستطيع المرء أن يفي هذا النظام (أي النصبة) حقه من الدراسة برؤية سيميائية.

ومما تقدم يمكن القول: إن الجاحظ كان ينطلق من رؤية سيميائية، لمختلف الأنظمة السيميائية؛ التي انضوت في سياق حديثه عن مصطلح "البيان" بمفهومه الشامل، الذي لا يفصل بين الغاية الاجتماعية التي فيها صلاح العباد والبلاد، وبين الغاية الدينية، التي تهدي إلى الصراط المستقيم. وخالق الكون، فتحقق للمرء يقين الاعتقاد وسعادة الدارين: الدنيا والآخرة. والنصبة عنده توضع في هذا السياق فهي ليست تواصلاً بين الإنسان وربه فحسب، بل بين الإنسان والإنسان أيضاً مكاناً وزماناً، وبين الإنسان ونفسه!

وختاماً؛ إذا كان (كلر) قد عدَّ اكتشاف سوسور للسيميائية (علم العلامات) كشفاً عظيماً مساوياً لاكتشافات (جاليليو) في قوانين الكون، وتأسيس العلم الحديث في الفيزياء[٥] أو غيرها، فإنَّنا لا نجانب الحقيقة إذا رددنا مع الناقد كمال أبو ديب[٦]: **بأن الجاحظ يُعَدُّ بكل جدارة مؤسس السيميائية**. وهذا يدفع الباحثين

---

(١) الجاحظ، كتاب الحيوان ، ص٣١، ٣٢

(٢) الجاحظ، البيان والتبين، ج١، ص٧٦ والحيوان، ج١، ص٣٣ "وسائل البيان".

(٣) المرجع السابق، ج١، ص٧٦. والحق يقال : إن النصبة وحدها – عند الجاحظ – تغري بدراسة موسعة، للتعرف على تفصيلاتها ، وهي لا تقتصر على ما ذكره الدارسون العرب حتى الآن .

(٤) بن سلامة؛ رجاء . "في النصبة والبيان ومحنة المعنى" . **مجلة فصول في النقد** . مرجع سابق، ص٣٠١.

(٥) كلر، جوناثان. **فردينان دو سوسير؛ تأصيل علم اللغة الحديث وعلم العلامات**؛ ترجمة وتقديم: محمود حمدي عبد الغني، مراجعة محمود فهمي حجازي. المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر. ٢٠٠٠. ص: ١٣٥.

(٦) أبوديب، كمال ."السيميائية أحدث العلوم الإنسانية". **مجلة العربي** . ص٦٢.بتصرف.

لقراءة أفكاره وفقا لهذه الرؤية السيميائية البعيدة الآفاق التي تمثل رؤيته للحياة والكون والإنسان "**على أن المعاني تفضل عن الأسماء، والحاجات تجوز مقادير السمات، وتفوق ذرع العلامات**"[(١)]،إنها **الرؤية السيميائية المفتوحة** التي ستبقى ما بقيت الحياة، وعلى الباحثين العرب ألا يستهينوا برؤية الجاحظ السيميائية، وما قدمه في هذا المجال في **مختلف كتبه** – من دون أدنى شك – إنجاز كبير في عصره، لم نسمع بمثله عند المعاصرين إلا بعد ظهور سوسور و بيرس في مطلع القرن العشرين، في أفضل الأحوال.

ولا تدَّعي هذه الدراسة إيفاء سيميائية الجاحظ حقها من الدرس؛ ولكنها قدَّمت قراءة **تؤصِّل هذه الرؤية السيميائية لديه**، دون إسقاط الحاضر على الماضي، وإنما هي قراءة تضيء على الماضي في سياقه الإنساني والحضاري، الذي يجعل أفكار هذا الماضي قادرة على الحياة والاستمرار؛ مستفيدة مما قدمته الدراسات االسيميائية المعاصرة، وقد يزعم بعض الباحثين ألاّ جديد في ذلك ، ولكن كما قال الناقد جمال شحيد – عندما صور لنا تلك العلاقة بين الماضي والحاضر – إن: "الناقد الحديث يجد في النقد القديم لُقى نفيسة، وأنه بتعدد الوسائل المتاحة له الآن **يثري النقد القديم، ويسلط عليه أضواء جديدة** اقتبسها من العلوم الإنسانية المعاصرة، فينفض الغبار عنه ويلبسه حلة قشيبة."[(٢)] وهذا ما حاولته هذه الدراسة، إذ قارنت بين بعض مصطلحات الجاحظ وأفكاره السيميائية، وبين المصطلحات السيميائية المعاصرة، ولاسيما عند مؤسسها فردينان دي سوسور، وغيره من الباحثين المعاصرين في هذا المجال، **وسعت إلى تصحيح بعض المفهومات التي وردت لدى بعضهم**؛ سواء أكان ذلك برؤية بيانية أم برؤية سيميائية؟! ولعلها تكون حافزا للباحثين؛ كي يلجوا هذا الفضاء السيميائي الرحب لأبي عثمان الجاحظ، ويسبروا أغواره، ويلبسوه الحلة القشيبة التي دعا إليها الناقد شحيد –كما مرَّ آنفا – والتي يستحقها الجاحظ.

مراجع البحث

١– إيكو؛ إمبرتو. **السيميائية وفلسفة اللغة**؛ ترجمة أحمد الصمعي. ط١. المنظمة العربية للترجمة. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت، لبنان. عام ٢٠٠٥.

٢– بلمليح؛ إدريس. **الرؤية البيانية عند الجاحظ**. دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب. ١٩٨٤م/١٤٠٤هـ.

٣– الجابري؛ محمد عابد. **بنية العقل العربي ؛ دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية**. ط٤. مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان. ١٩٩١م.

٤– الجاحظ؛ أبو عثمان عمرو بن بحر:

– **البيان والتبيين**؛ تحقيق عبد السلام هارون. دار الجيل، بيروت، لبنان.١٩٩٠م/١٤١٠هـ. ج١وج٢.

(١) الجاحظ، كتاب الحيوان، ج٥، ص: ٢٠١

(٢) –شحيّد؛ جمال، وغوتيه؛ إيريك. **النقد الأدبي في المشرق العربي**؛ أعمال الندوة العلمية التي انعقدت في ٢٢، و٢٣، تشرين الثاني. ٢٠٠٤. سوريا، دمشق ، المعهد الفرنسي للشرق الأدنى؛ قسم الدراسات العربية. ٢٠٠٦. ص٢٨٥. والقول مقتبس من دراسة للدكتور شحيّد بعنوان "النقد الأدبي المعماري" ص(٢٧٩–٢٨٨) من المرجع السابق.

- **الحيوان**؛ تحقيق عبد السلام هارون. ط٣؛ (المجمع العلمي العربي الإسلامي و دار إحياء التراث العربي)، بيروت، لبنان. ١٩٩١م /١٣٨٨ هـ. ج١، وج٦.
- **الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير**. ط١. طبعة المطبعة العلمية، حلب، سوريا.١٩٢٨م/ ١٣٤٦هـ.
- **الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير**. دار الندوة الإسلامية، بيروت، لبنان. ومكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة. ١٩٨٧، ١٩٨٨.

٥- **جبري**؛ شفيق. **الجاحظ معلم العقل والأدب**. ط٢. دار البشائر ، دمشق، سورية. ٢٠٠١م/ ١٤٢٢هـ.

٦- حسام الدين؛ كريم زكي. **الإشارات الجسمية**؛ دراسة لغوية لظاهرة استعمال أعضاء الجسم في التواصل. ط١. مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، مصر. ١٩٩١م/١٤١٠هـ .

٧- **دي** سوسور؛ فردينان. **علم اللغة العام** ؛ ترجمة يوئيل يوسف عزيز. بيت الموصل، جامعة الموصل؛ العراق. ١٩٨٨م.

٨- رشيد؛ أمينة. "**السيميوطيقا في الوعي المعرفي المعاصر**. مجلة فصول في النقد. القاهرة. مصر. المجلد الأول، العدد الثالث ، ١٩٨١.

٩- شحيّد؛ جمال، وغوتيه؛ إيريك. **النقد الأدبي في المشرق العربي**؛ أعمال الندوة العلمية التي انعقدت في ٢٢ و٢٣تشرين الثاني. ٢٠٠٤. سورية، دمشق ، المعهد الفرنسي للشرق الأدنى؛ قسم الدراسات العربية. ٢٠٠٦.

١٠- صمود؛ حمادي. **التفكير البلاغي عند العرب؛ أسسه وتطوره إلى القرن السادس**؛ مشروع قراءة . منشورات الجامعة التونسية .كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتونس. السلسلة السادسة، الفلسفة والآداب. مجلد عدد٢١. تونس. عام ١٩٨١.

١١- قاسم؛ سيزا. وأبو زيد؛ نصر حامد. **أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة**. ط١. دار الياس العصرية، القاهرة مصر. ١٩٨٦.

١٢- كلر؛ جوناثان. **فردينان دو سوسير؛ تأصيل علم اللغة الحديث وعلم العلامات**؛ ترجمة وتقديم: محمود حمدي عبد الغني، مراجعة محمود فهمي حجازي. المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر .٢٠٠٠.

١٣- محجوب؛ فاطمة. **دراسات في علم اللغة**. دار النهضة العربية، القاهرة، مصر. ١٩٧٦.

١٤- المسدي؛ عبد السلام. **ما وراء اللغة بحث في الخلفيات المعرفية**. مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع، تونس. ١٩٩٩.

١٥- **الموسوعة العربية العالمية**. ط١. مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع. الرياض. ١٩٩٦م/١٤١٦هـ

١٦ – **الدوريات**:

أ- **مجلة العربي** .الكويت. العدد ٣٣٤، سبتمبر ١٩٨٦

ب- **مجلة فصول في النقد**. مصر، القاهرة. المجلد الأول، العدد الثالث، ١٩٨١

ج- = **فصول في النقد**. المجلد ١٥، العدد الرابع، شتاء ١٩٩٧